

التداولية: المصطلح وقضايا المنهج، والتداولية العربية حازم القرطاجني نموذجاً

د. نادية لطفي ناصر⁽¹⁾

المقدمة

يعد تيار التداولية بشقيه اللغوي والأدبي تطوراً نظرياً للدراسات النقدية الحديثة، حيث يهتم بالخطاب وقصد المتكلم والسياق وأفعال الكلام والفعل الإنجازي والبعد الحجاجي.

وهذه القضايا تناولها النقاد العرب القدامى تطبيقياً ونظرياً، ولذا كان من أهداف البحث إلقاء الضوء على جهود الناقد العربي "حازم القرطاجني"، ومدى وعيه وإدراكه لجوهر التداولية بالمفهوم الحديث، كما كان من أهداف البحث توضيح وإبانة المنهج التداولي وكشف الغموض عنه ليسهل قراءة القارئ العربي له.

إن أهمية البحث تكمن في تلك الوساطة أو القناة التواصلية بين التداولية، مفهوماً وقضايا، والباحثين أو القارئ العربي بصفة عامة.

كما كان من صعوبات البحث في هذا الموضوع قلة المصادر المترجمة الكاشفة عن المعنى الصحيح الذي يريده الناقد الغربي، وكذلك قراءة النص العربي في "منهاج البلغاء" قراءة فاحصة، وقد تناولت الموضوع بالوصف والتحليل، كما قسمته إلى مقدمة وفصلين رئيسيين وهما:

الفصل الأول: التداولية المصطلح والقضايا، وقد تحدثت فيه عن مصطلح التداولية ومجال دراستها وهدفها ثم مبادئ التداولية وأفعال الكلام وأخيراً تحدثت عن نقد النظرية.

(1) د. نادية لطفي ناصر: أستاذ مساعد بجامعة الملك فيصل - المملكة العربية السعودية.

أما الفصل الثاني: التداولية العربية، فقد تكلمت فيه عن التداولية والبلاغة العربية ثم عن الدال والمدلول عند حازم القرطاجني، وأردفته ببعض مباحث التداولية عنده، ثم الخاتمة.

وأحسب أنني أكون قد اقتربت من الحقيقة والمنهجية والموضوعية.

الفصل الأول

التداولية المصطلح وقضايا المنهج

أولاً- المصطلح:

ومن تعريف المصطلح: الاتفاق بين مجموعة متخصصة على وضع ألفاظ تدل على مسميات مباشرة لما يتداولون، أو هو التعبير عن معنى من المعاني العلمية، يتفق عليه علماء ذلك العلم، فالاصطلاح يجعل للألفاظ مدلولات جديدة غير مدلولاتها الأصلية أو اللغوية؛ فهو علم يبحث في أسس وضع المصطلحات عامة، وخصائصها وطرائق بنائها⁽²⁾.

وإذا كان المصطلح رمزا وضع بكيفية ما، اعتبارية أو اتفاقية بين فئة، ذلك أن المعاني متفاوتة ومتنوعة، فهناك معنى اصطلاحى، ومعنى استعمالى، وثالث معجمى... فالمعنى الاصطلاحى عرف خاص؛ لأنه ثمرة اتفاق طائفة معينة في علم ما، على أمر ما، والمعنى المعجمى عرف عام مشترك بين الناس جميعا⁽³⁾.

وبذلك وضع مصطلح التداولية بالاتفاق بين النقاد المتخصصين في هذا المجال والاتفاق والاستتارة بالمعنى المعجمى في المعاجم العربية.

(2) سلطان، مهدي صالح. (2012م). ص60. في المصطلح ولغة العلم. بغداد: [بدون].
(3) عزام، محمد. (2010م). ص7. المصطلح النقدي في التراث الأدبي. سوريا دار الشرق العربي.

وإن ما يدعو إلى وضع المصطلحات باللغة العربية وتوليدها من اللغة الأجنبية هو تطور البحث العلمي، وحل أزمة المصطلح بالتعرف على قابلية اللغة العربية على توليد الألفاظ الجديدة ولاسيما الاشتقاق⁽⁴⁾.

والمصطلح النقدي يشمل مصطلحات علوم عديدة، كالنقد، والبلاغة، والأدب، العروض والقافية وتحتاج هذه العلوم حتماً إلى المصطلح لأنه إذا لم يتوفر للعلم مصطلحه العلمي الذي يعد مفتاحه ...، ومن هنا كان لا بد من تحديد الألفاظ والمفاهيم، لأن هذا التحديد هو المنطلق الأول للتفكير العلمي⁽⁵⁾.

ولا ترتجل المصطلحات المعربة ارتجالاً، من دون أسس وقواعد ومراجع تبيح وضعها، وتسوغ وجودها، وتكون السبب المباشر أو غير المباشر في ظهورها.

والمصطلحات ألفاظ لغوية ذات معني تتناسب ما اصطلح عليه مباشرة، أو من دلالة المشابهة، أو من الدلالة على مشاركة لفظ لغيره في المعنى قبل الاصطلاح، أما الذي يضع المصطلح فمن له صلة به، أو حاجة باستعماله، مستعيناً بالوسائل اللغوية ليتحقق له ما يريد⁽⁶⁾ ومن هنا كان مصطلح التداولية مناسباً لمعطيات المنهج، ودلالة التداولية في المعجم العربي تتناسب مع مفهوم التداولية كما سيأتي.

تعددت الترجمات لهذا المنهج فقد سماها بعض النقاد العرب "البراجماتية اللسانية" "Linguistic Pragmatics" وهو د. "محمود عكاشة" ورأى أنها الترجمة الأدق حيث قال: البراجماتية اللسانية أو التداولية اللسانية هي نفسها "التداولية" "pragmatics" التي شاعت في البحوث العربية، وقد اخترت مصطلح

(4) سلطان، مهدي صالح. ص 61. في المصطلح ولغة العلم .

(5) عزام، محمد. ص 7. المصطلح النقدي في التراث الأدبي.

(6) سلطان، مهدي صالح سلطان. ص 61. في المصطلح ولغة العلم.

البراجماتية اللسانية لدلالاته على المفهوم الغربي الدقيق وللتفرقة بين المصطلح اللساني الحديث والمصطلح الفلسفي " pragmatism " وقد ترجم إلى البراجماتية والفوائدية والنفعية والعملية⁽⁷⁾.

كما ترجمها د. "سعيد علوش" في ترجمته لكتاب "فرانسوا أرمينكو" المقاربة التداولية " ورجح د. جميل حمداوي مصطلح "التداولية"، وذكر ترجمات لها مثل التخاطب عند د. "محمد محمد يونس" وذكر الذرائعية والنفعية والتبادلية والوظيفية والاستعمالية والبراجماتية وقال: وعلى أي حال، سواء أخذنا بالتداولية أم بالتخاطبية، فالمصطلحان معا أفضل بكثير من مصطلح الذرائعية الذي يحيل على الفلسفة المنفعية أكثر مما يحيل على اللغة ومكوناتها اللسانية⁽⁸⁾ كما فضل مصطلح التداولية لشيوعها بين الدارسين.

إن كلمة "تداول" توحى بتبادل الأدوار بين المتكلم والمتلقي، فمرة يكون المتكلم متلقيا ومرة يكون المتلقي متكلما، واستمرار التداول يوحي بالتواصل والفهم المستمر وإذا انقطع الفهم لم يعد هناك تداول، فالتداولية استمرار التداول للحوار والجمل اللفظية وغير اللفظية حيث الأعراف الاجتماعية من إشارات وإيحاءات وإيماءات واستلزمات حوارية. واستمرار التداول يوحي باستمرار الفائدة والمعلومة من الملفوظ أو وجود قضية ما، لها صدقها ووضوحها لدى المتلقي.

إذن فمصطلح "التداولية" كترجمة أرى أنه صحيح ولا يجوز قول برجماتية ووضعها هكذا بلا تعريب.

(7) د. عكاشة، محمود. (2013). ص 3. النظرية البراجماتية اللسانية التداولية، دراسة

المفاهيم والنشأة والمبادئ. القاهرة: مكتبة الآداب.

(8) د. حمداوي، جميل. ص7. التداوليات وتحليل الخطاب.

أما تعريفها فهي "منهج غربي حديث في البحث اللغوي تأثر بالفلسفة الواقعية المادية في بحث أعيان الأشياء وما يتعلق بها، وهدفها القصد اللغوي ... وتعد إسقاطاً مباشراً للفلسفة البنيوية التي عرفت من خلاله"⁽⁹⁾.

وحد التداولية أيضاً: أنها تمثل دراسة تهتم باللغة في الخطاب، وتتنظر في الوسميات الخاصة به، قصد تأكيد طابعه التخاطبي، وهو تعريف أتى به "أ.م. ديلر" a.m.diller و "ف. ريكارتي" (F.Recanati)، كما تحد التداولية بكونها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية في نفس الوقت كما عرفها "ف. جاك" F.Jacqu وتحد بالدراسة أو التخصص الذي يندرج في اللسانيات ويهتم أكثر باستعمال اللغة في التواصل وهذا تعريف "ل. سفز" L.Sfez⁽¹⁰⁾.

كما قامت النظرية البراجماتية اللسانية على نظرية فلسفية واقعية "النفعية العملية: Pragmatism" وقد اجتاحتها قضايا الفلسفة والمنطق والاجتماع وعلم النفس والاتصال وبعض عناصر العلوم التجريبية، وقد نتج عن هذا التفاعل اتجاهات أخرى داخلها ألفت بين مزيج من الدراسات اللسانية الموروثة والعلوم التي تأثرت بها البراجماتية فتنوع أسلوب المعالجة اللسانية فيها، ومن ثم تختلف أدواتها ومفاهيمها باختلاف المنحى العلمي، ويعد هذا التداخل والتنوع سبباً رئيساً في عدم وضوح منهجها ومذاهبها التحليلية، فهي تتسع لمجالات البحث والتحليل في هذه العلوم، وما زال العمل في تطويرها ومعالجة قضاياها مستمراً⁽¹¹⁾.

ولا يرى "البراجماتيون" في الحقيقة إلا طابعها المادي ومنحاه المنفعي والمصلي لتحقيق التنمية والتقدم بينما يجب أن تكون الحقيقة في جوهرها معرفية

(9) د. عكاشة، محمود. (2013). ص3. النظرية البراجماتية اللسانية

(10) بلانشيه، فليب. (2007) ص18-19. التداولية من أوستن إلى هوفمان. ت. صابر الحباشة. سوريا: دار الحوار. ط1.

(11) المصدر السابق. ص 4

وعملية وأخلاقية⁽¹²⁾. والتداولية هي خضوع القضايا للسياق⁽¹³⁾. وهى علم يعالج علاقة العلامات بمؤولاتها: وهذا هو التعريف البدائي للتداولية كما يرى فرانسوا أرمينيكو⁽¹⁴⁾.

فقد عرفها شارلز موريس Charles morris: العلاقات بين العلامات ومستخدميها. واستقر في ذهنه أن التداولية تقتصر على دراسة ضمائر المتكلم والخطاب وظرفي الزمان والمكان والتعابير التي تستقي دلالتها من معطيات تكون جزئياً خارج اللغة نفسها أي من المقام الذي يجري فيه التواصل⁽¹⁵⁾.

ومن آراء "شارل وليام موريس" في "التداولية" إذا كنا نحيل في بحث ما مباشرة على المتكلم أو على مستعمل اللغة، حت نتكلم بتحديدات أكثر عمومية فإننا نعد هذا البحث صادراً عن التداولية⁽¹⁶⁾.

ثانياً - مجال الدراسة وأهدافها:

إن المقاربة التداولية هي تلك المنهجية التي تدرس الجانب الوظيفي والتداولي والسياقي في النص أو الخطاب، وتدرس مجمل العلاقات الموجودة بين المتكلم والمخاطب، مع التركيز على البعد الحجاجي والإقناعي وأفعال الكلام داخل النص⁽¹⁷⁾.

12) د. حمداوي، جميل. ص 7. التداولية وتحليل الخطاب. شبكة الألوكة.

13) أرمينيكو، فرانسوا ص. 49، ص1. المقاربة التداولية. ترجمة د. سعيد علوش: مركز الإنماء القومي.

14) المصدر السابق. ص 29.

15) روبرول، آن، موشلار، جاك. (2003). ص29. التداولية اليوم، عالم جديد في التواصل. ترجمة: سيف الدين دغفوش، محمد الشيباني . ط1. بيروت : دار الطليعة.

16) أرمينيكو، فرانسوا ص. 34. المقاربة التداولية. تد. سعيد علوش: مركز الإنماء القومي.

17) حمداوي، جميل ص 7. التداوليات وتحليل الخطاب.

إن توليد الدلالة ووضع العلامات أي التواصل في الواقع يمكن أن ينقسم إلى ثلاث علاقات بينية: العلاقات الدلالية أي علاقة العلامات بالأشياء والعلاقة التداولية وهي علاقة العلامات بالمتخاطبين أو المؤولين) والعلاقة الإعرابية.... وهكذا تتولد التداولية نظريًا ومنهجيا حسب موريس.... فالتداولية قسم من الدلائلية يعنى بالصلة القائمة بين العلاقات ومستعملها⁽¹⁸⁾.

إنها تهتم بدراسة اللغة الطبيعية أو لغة الخطاب اليومي المباشر،.... والكشف عن المقدرة الخطابية، وتدرس معاني القول في المقامات التخاطبية⁽¹⁹⁾. كما تدرس المقاربة التداولية اللغة العادية واللغة اللاعادية أي اللغة الشعرية واللغة الروائية واللغة الدرامية، وحضور الأنا والأنت والسياق التواصلية، والوظيفة المقامية والمقالية، والانتقال من الحرفي إلى الإنجازي، ودراسة الحجاج من النصوص والخطابات التي يكون هدفها هو الإقناع الذهني والتأثير العاطفي والوجداني وأيضًا دراسة السرد الإقناعي كما عند "غريماس".... وفعل التأويل، من حيث الكفاءة المبنية على منطق الجهات (وجود الفعل، معرفة الفعل، قدرة الفعل، إدارة الفعل، وحيث إن اللغة ثلاثة مظاهر: مظهر خطابي، ومظهر تواصلية، ومظهر اجتماعي فإن المقاربة التداولية هي التي تركز على الجانب التواصلية في اللغة الطبيعية⁽²⁰⁾.

وتبحث التداولية في الإشارة وتسمى العناصر الإشارية أو الإحالية، والافتراض السابق والاستلزام الحوارية، والأفعال الكلامية، ومتضمنات القول⁽²¹⁾.

18) بلانشيه، فليب. (2007) ص 44-45. التداولية من أوستن إلى هوفمان. ترجمة: صابر الحباشة. سوريا: دار الحوار. ط1.

19) عكاشة، محمود. (2013). ص 19. النظرية البراجماتية اللسانية.

20) حمداوي، جميل. ص7. التداوليات وتحليل الخطاب.

21) عكاشة، محمود. ص83. النظرية البراجماتية اللسانية.

كما تدرس التداولية المقصدية والوظيفية والسياق والحجاج اللغوي والإقناع وتستند المقاربة التداولية كذلك إلى تخصصات عدة، فهناك تداولية تحليلية، وتداولية تلفظية، وتداولية نفسية – اجتماعية، وتداولية نصية، وتداولية سوسيو لغوية⁽²²⁾.

وتأتي أهمية التداولية، في كونها تهتم بمختلف الأسئلة المهمة، والإشكالات الجوهرية في النص الأدبي المعاصر، لأنها تحاول الإحاطة بعدد من الأسئلة من قبيل:

من يتكلم وإلى من؟

ماذا يقول بالضبط حين يتكلم؟

ما مصدر التشويش والإيضاح؟

كيف تتكلم بشيء، وتريد قول شيء آخر؟

من ثم تستدعينا التداولية للإجابة عن هذه الأسئلة إلى استحضار مقاصدنا، وأفعال لغتنا وسياق تبادلاتنا الرمزية، والبعد التداولي لهدف اللغة المستعملة، لذلك وجد مفهوم الفعل، ومفهوم السياق، ومفهوم الإنجاز في التداولية كمقاييس ومؤشرات على اتجاهات النص الأدبي في النظرية النقدية⁽²³⁾.

وترفض المقاربة التداولية في مجال الأدب والنقد التركيز على البنيات الشكلية والجمالية، دون مسألة أفعال الكلام، والمقصدية الوظيفية⁽²⁴⁾.

وتهدف التداولية إلى دراسة اللغة في حيز الاستعمال متجاوزة حدود الواقع الأصلي المباشر في بعض السياقات التي لا يقصد فيها المتكلم الدلالة المباشرة

22) حمداوي، جميل. ص.7. التداوليات وتحليل الخطاب.

23) أرمينيكو، فرانسوا. ص.2. المقاربة التداولية.

24) حمداوي، جميل. ص.7. التداوليات وتحليل الخطاب.

في الكلام، بل يقصد المعنى السياقي غير المباشر، وهذه المعاني لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال فهم اللغة في سياق الاستعمال السياقي الذي يحدد قصد المتكلمين، والوضع اللغوي وحده لا يكفي لتحقيق هذا المعنى، فبعض المعاني الثانوية للتعبير كالسخرية والاستتكار والمدح والذم تستفاد من علاقته بالسياق الخارجي، وتدرس كذلك الأساليب الأدبية الخاصة التي يوظفها الكاتب في عمله الإبداعي ووجوه تأويلها والقصد منها⁽²⁵⁾.

وقد أثبت الطابع التجريبي الثابت للتداولية أن أي لسانيات هي بالضرورة تداولية ما دامت تحيل على المتكلم وحتى على مفهوم القاعدة⁽²⁶⁾، إذن هي تدرس المعنى الذي يقصده المتكلم وليس التركيب اللغوي للكلام.

ومن حيث مجال البحث التداولي فتتقسم البراجماتية اللسانية العامة إلى "general pragmatics" التي تعالج الاستعمال اللغوي في ضوء السياق إلى البراجماتية اللسانية (التداولية) والبراجماتية الاجتماعية "sociopragmatics"، فالأولى هي التي تدرس التركيب اللغوي في ضوء الاستعمال في الخطاب المباشر، فتتعلق من اللغة إلى السياق الاجتماعي، وتستخدم لغة معينة لنقل أفعال إنجازية معينة، والثانية تدرس (التداولية الاجتماعية) شروط الاستعمال اللغوي المستنبطة من السياق الاجتماعي فتتعلق من السياق الاجتماعي إلى التركيب اللغوي، وتدرس العناصر الاجتماعية في الخطاب التي تؤثر في الاستعمال اللغوي و تساعد في فهمه، وهناك فروع أخرى مثل التداولية التطبيقية، وهي تعالج مشكلات التواصل في المواقف المختلفة والتداولية الاستراتيجية،

(25) عكاشة، محمود. ص 21. النظرية البراجماتية اللسانية.

(26) بلانشيه، فليب. (2007) ص 45. التداولية من أوستن إلى هوفمان. ترجمة: صابر الحباشة. سوريا: دار الحوار. ط 1.

المتعالية، والحوارية، وتدرس الشروط التي تسبق التواصل، والتداولية التعليمية وهي تدرس لغة المتكلم غير الأصلية....⁽²⁷⁾.

والتداولية اللسانية تدرس الإشارة وتسمى العناصر الإشارية أو الإحالية والافتراض السابق، والاستلزام الحواري، والأفعال الكلامية، واستخدام متضمنات القول⁽²⁸⁾.

وقد ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية في القرن التاسع عشر الميلادي، وتطورت بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ومن ثم فقد تبلورت النظرية مع "وليام جيمس" (William James 1842-1910) الذي اهتم بالجانب المنفعي والمصلحي، حيث ربط الفكرة بطابعها المنفعي في الواقع؛ بغية بناء مستقبل عملي زاهر أما "شارل ساندرس بيرس" (Charles S. Peirce 1834-1914) فقد اهتم بتداولية سيميائية قائمة على نظام العلامات حيث ميز بين الرمز والإشارة والأيقونة، وبدأ في تفريعها إلى أقطاب سيميائية ثلاثة ذات طابع منطقي ووجودي وأنطولوجي وبعده جاء "شارل موريس" ليميز بين ثلاثة مظاهر في اللغة الطبيعية: المظهر التركيبي، المظهر الدلالي والمظهر التداولي وبذلك بشر موريس بالمقاربة التداولية التي تعني بالوظيفة السياقية ... وهي ضرورية لاكتمال الفهم المتعلق باللغة الإنسانية⁽²⁹⁾.

وهناك عدة تيارات للتداولية منها تيار موريس ... وقد ركز على نظرية التلفظ، فربطها بالسياق التواصلية الذي ينبثق على المعنويات: أسماء الإشارة، الضمائر، أداة التعريف، أداة التملك... والزمان المكان، والصيغ العاطفية والانفعالية، وأحكام التقويم، وتعابير الوجه.

27) عكاشة، محمود. ص82،81. النظرية البراجماتية اللسانية.

28) المرجع السابق. ص 83.

29) حمداوي، جميل. ص8. التداوليات وتحليل الخطاب.

أما تيار فلاسفة أكسفورد بما فيهم " أوستين " و "سورل " و "كرايس " فقد اهتموا بنظرية أفعال الكلام بمعنى أن الفعل الكلامي يؤدي إلى تحويل وضع المتلقي وتغيير نظام معتقداته، وتبديل مواقفه السلوكية، ويمكن الإشارة كذلك إلى بعض التيارات والنظريات التخاطبية، والنظرية النقاغلية والنظرية الحجاجية، والنظرية التلفظية، والنظرية المقصدية، والنظرية التوليدية، والتوليدية الوظيفية مع "فان ديك" و"هاليداي" و "رقية حسن" و"أحمد المتوكل" .

وهناك التيار السردي مع "كريماس" و "جوزيف كورتس"... وهناك المقاربة التأويلية مع "بول ريكور" الذي اهتم بالإحالة السياقية، ومدرسة "فرانكفورت" التي اهتمت بدورها بالسياق التواصلي مع "هاير ماس"⁽³⁰⁾.

إذن التداولية هي دراسة المعنى الذي يقصده المتكلم.....وهي دراسة المعنى السياقي..... ودراسة كيفية إيصال أكثر مما يقال⁽³¹⁾، وهي تمكننا من التحدث عن المعاني التي يقصدها الناس، وعن افتراضاتهم، وأهدافهم، وما يصبون إليه، وأنواع الأفعال التي يؤدونها أثناء تكلمهم⁽³²⁾.

ثالثا - مبادئ التداولية:

المعنى في التداولية نوعان: معنى حرفي ظاهر ومعنى سياقي ضمني يفهم من وراء اللفظ. واقترح جرايس مبدأ التعاون الحواري...فالاستلزام الحواري حلقة الوصل بين المعنى الحرفي الصريح والمعنى المتضمن في شكل الجملة⁽³³⁾.

(30) المرجع السابق. ص 8.

(31) يول، جورج. (2010-1431م) ص 19. التداولية. ترجمة: د. قصي العتابي. الرباط، بيروت: الدارالعربية للعلوم ناشرون.

(32) المصدر السابق. ص 20.

(33) عكاشة، محمود. ص 88. النظرية البراجماتية اللسانية، التداولية.

والاستلزام الحوارى هو مجموع القواعد التى يخضع لها المتحاورون، ليتحقق التواصل بينهم وليصلوا إلى فائدة مشتركة تتطور بقدر ما يسهم كل طرف مساهمة فعالة فى الحوار، فيتحقق التفاهم فيما بينهم بطريقة منطقية⁽³⁴⁾.

وهو مبدأ اجتماعى يتحكم فى العلاقات الاجتماعية للمتكلمين من خلال الاستعمال الحرفى للغة وأخلاقى لما يستوجبه من مبادئ أدب الحوار بين المتحاورين⁽³⁵⁾. وكلما زادت الأشياء المشتركة بين متكلمين، قل استخدام اللغة التى يحتاجها لتعريف أشياء مألوفة عندها.

يوضح هذا المبدأ الاستعمال المتكرر لكلمات مثل هذا وذلك للإشارة على أشياء تدخل ضمن السياق الملموس المشترك⁽³⁶⁾.

إن التخاطب بين أطراف التكلم يبنى على بعض المبادئ وقد جمعها فيلسوف اللغة الأمريكى "بول كرايس هيربرت" فى قاعدة التعاون الذى يقتضى أن المتكلمين متعاونون فى تسهيل عملية التكلم والتخاطب وتتفرع قاعدة التعاون إلى مجموعة من المبادئ منها:

1. مبدأ الكم: تكلم على قدر الحاجة فقط ولا تتجاوز بإفادتك القدر المطلوب ويعنى هذا الابتعاد عن الإطناب والاستطراد وغير ذلك
2. مبدأ الكيف: لا تقل ما تعتقد كذبه، ولا تقل ما يعوزك فيه دليل ويسمى مبدأ الصدق
3. مبدأ الأسلوب: تجنب إبهام التعبير، وتجنب اللبس، وأوجز كلامك..ولیکن كلامك مرتباً.
4. مبدأ المناسبة: لیکن كلامك مناسباً لسياق الحال، مراعاة مقتضى الحال⁽³⁷⁾.

(34) المرجع السابق. ص 90.

(35) السابق. ص 90.

(36) يول، جورج. (1431-2010 م) ص 26. التداولية. ترجمة: د. قصي العتابي.

المبدأ التعاوني يتطلب ما يلي:

اجعل مساهمتك في المحادثة كما يتطلب منها أن تكون في مرحلة ورودها، وفقا للغرض المقبول أو اتجاه تبادل الحديث الذي تخوضه.

أما المبادئ الثانوية

الكم Quantity

1- اجعل مساهمتك إخبارية بقدر ما يتطلب الأمر.

2- لا تجعل مساهمتك إخبارية بقدر يفوق المطلوب.

النوع Quality : حاول أن تجعل مساهمتك من النوع الذي يوسم بالصحة

1- لا تقل ما تعتقده كذبا.

2- لا تقل شيئا يعوز عندك دليل كاف.

العلاقة Relation: كن وثيق الصلة بالموضوع.

الحال Manner : كن واضحا.

1- تجنب استبهام التعبير.

2- تجنب الغموض.

3- كن موجزا (تجنب الإطناب غير ضروري).

4- كن منتظما⁽³⁸⁾.

يقول "فرانسوا أرمينيكو" عن مبدأ التعاون "لقد استعمل كرايس هذا المبدأ، من خلال أربع حكم، اقتبس فيها التوزيع والتسمية من جدول الأحكام عند "كانت" "kant" وهي تخص المبدأ المعنى، بحسب الأبواب المعروفة عند "كانت" كأبواب رئيسة في أحكام:

(37) د. حمدوي، جميل (14-15). التداوليات وتحليل الخطاب. وانظر د. محمود عكاشة.

ص 91. النظرية البراجماتية اللسانية، التداولية.

(38) يول، جورج. (1431-2010 م) ص 68. التداولية. ترجمة: د. قصي العتابي.

- 1- حكمة كمية: "اجعلو خطابكم أكثر غنى بالأخبار، على ألا يتعدى ذلك حده ليصبح هدفا في التواصل".
 - 2- حكمة كيفية "لا تقل ما تعتقد في خطئه".
 - 3- حكمة العلاقة: كن دقيقا.
 - 4- حكمة الصيغة: كن واضحا، دون التباس وموجزا ومنظما.
- ومن ثم تحصل على حكمة إخبارية محضة، وحكمة إخلاص، وحكمة دقة، وحكمة التصرف الجيد وتظل هذه الحكم عامة، وغير معقدة، وقليل ما تمثل تقادماً مباشراً بالنسبة للرصيد المضمن والذي يؤول انطلاقةً منه، كل تواصل.
- من هنا، فاستعمال الحكم يكون غير مباشر لأنها غير بعيدة في نظري عن مكونات جهاز القواعد الهرمونتكية، بالنسبة للخطاب اليومي⁽³⁹⁾.

رابعا- أفعال الكلام :

تنطلق النظرية الكلاسيكية لأفعال اللغة من الاعتقاد التالي: إن الوحدة الدنيا للتواصل الإنساني، ليست هي الجملة ولا أي تعبير آخر، بل هي إنجاز بعض أنماط الأفعال.

ويعد رائد هذا الاعتقاد، فيلسوف أكسفورد "جون . أ . أوستن" الذي أعطى لائحة طويلة بهذه الأفعال، والتي يفهم منها بشكل جيد، هو أنها تتعلق بتعريف تجريدي وهذه اللائحة تشتمل على: أكد، ووضع سؤالاً، وأعطى أمراً، ووصف، واعتذر، وهدد، وترجى، وتحدى، ورضخ⁽⁴⁰⁾.

(39) أرمينكو، فرانسوا. ص 54. المقاربة التداولية. وانظر أن روبول، جاك موشلار. (2003). ص 55-56. التداولية اليوم، عالم جديد في التواصل. ترجمة: سيف الدين دغفوش، محمد الشيباني ط1. بيروت : دار الطليعة.

(40) المصدر السابق. ص. 60.

عند محاولة الناس التعبير عن أنفسهم فإنهم لا ينشؤون ألفاظا تحتوي على بنى نحوية وكلمات فقط، وإنما ينجزون أفعالاً عبر هذه الألفاظ⁽⁴¹⁾.

ومن هنا تتبنى نظرية الأفعال الكلامية على ثلاثة عناصر رئيسة هي أولاً: فعل القول: ويراد به إطلاق ألفاظ في جمل مفيدة سليمة التركيب، وذات دلالة تحمل في طياتها حمولات قضوية وإخبارية، ومن هنا تشتمل على مستويات صوتية ودلالية وتركيبية، مثل: أشكرك يا علي.

وثانياً- الفعل المتضمن للقول:

وهو الفعل الإنجازي، وهو يحدد الغرض المقصود بالقول كصيغة الأمر في هذه الجملة "انتظري اللحن الجديد".

وهو ما ينتج عن القول من آثار لدى المخاطب إثر فعل القول كإقناع المخاطب، وحثه وإرشاده، وتوجيهه أو تضليله ... وتحضير هذه المستويات الثلاثة للفعل الكلامي جميعاً في الوقت ذاته، وبدرجة متفاوتة هي التي تجعل هذا الفعل الكلامي كاملاً.

علاوة على ذلك، يميز "أوستن" بين الجملة الخبرية والجمل الإنجازية، وتتوعد هذه الجمل الإنجازية إلى أقوال ظاهرة وأقوال مضمرة، فالأقوال الإنجازية حوارية وسياقية، مثل الالتماس، والإرشاد، والتهديد والتحسر، ...⁽⁴²⁾ ويوجد مثال ذلك في أغراض الخبر والإنشاء في علم المعاني في البلاغة العربية.

وعند أوستن ليست كل الجمل تدل على الصدق أو الكذب فقط أي ليست خبرية فقط بل تستخدم الأفعال لإنجاز وعد أو تعجب أو أمنية، وعبارات الترغيب والترهيب والتشجيع وتوصل إلى نوعين من الأفعال وهي:

41) يول، جورج. (1431-2010 م) ص 81. التداولية. ترجمة د. قصي العتايي.

42) د. حمداوي، جميل. ص 24، ص 25. التداوليات وتحليل الخطاب.

- أ- الأقوال التقريرية: أفعال تصف وقائع العالم، وتكون صادقة أو كاذبة.
ب- الأقوال الأدائية: التي تنجز بها سياقات خاصة للدلالة على معاني الأفعال التي لا توصف بصدق أو كذب، مثل التسمية، والوصية، والاعتذار، والرهان، والنصح، والوعد⁽⁴³⁾.

1- وقد قسمها بعض الباحثين العرب إلى أربعة أقسام وهي : فعل القول، الفعل المتضمن للقول، والفعل المستدعى بالقول، والفعل الناتج عن القول وأدرج في شعبة الفعل المستدعى بالقول: الأمر والنهي⁽⁴⁴⁾.

2- وقد استدرج "جون سيرل" على نظرية "أوستن" وطور بعض القضايا التي لم يعالجها "أوستن" أو لم يطورها وذلك في كتابه أفعال الكلام حيث "ربط بين الأفعال الإنجازية وقوتها بين مفهوم القصد إذ يعده هدف العملية برمتها وحدد مفهوم الفعل الإنجازي فعده الوحدة الصغرى للاتصال اللغوي، وحدد مفهوم القوة الإنجازية في تأثر المتلقي بدليل القوة الإنجازية، وهو الذي يبين نوع الفعل الإنجازي الذي يؤدي بالنطق من خلال نظام الجملة، أو النبر أو الفعل الأدائي ورأى أن الهدف لنمط معين من الإنجاز هو هدفه الإنجازي⁽⁴⁵⁾.

3- وذكر "فرانسوا أرمينيكو" المقاييس الاثني عشر "لسيرل" والخاصة بالأفعال الإنجازية وهي:

4- اختلافات بالنسبة لغاية الفعل هنا يجب عن سؤال "ما الوجهة؟"

(43) د. عكاشة، محمود. ص 97. النظرية البراجماتية اللسانية: التداولية وانظر فرانسوا أرمينيكو. ص 60، 61. المقاربة التداولية وانظر جورج يول. ص 81. التداولية. وانظر د. جميل حمداوي. ص 25. التداوليات وتحليل الخطاب.

(44) صحراوي، مسعود. ص: 224. التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي. [ط: د. بيروت: دار الطليعة.

(45) د. عكاشة، محمود. ص 104. النظرية البراجماتية اللسانية، التداولية.

- 5- وهكذا يطلق "سيرل" الوجهة الإنجازية على غاية فعل إنجازي، وتكون الوجهة من هنا عنصراً من القوة الإنجازية، دون تغطيتها.
- 6- ويمكن أن يكون القول (ل): الترجي، الأمر "الوجهة نفسها التي هي: الحصول على قياس (س) بشيء ما مع أنهما لا يمتلكان "القوة" نفسها.
- 7- اختلافات في توجيه الترتيب بين الكلمات والأشياء: وهي اختلافات تكون عنصراً من الوجهة الإنجازية، لبعض الأقوال، وتقوم بترتيب الكلمات حتى تلائم الواقع .. لتكن الكلمات الأولى إذن تأكيدات، والثانية وعوداً أو أوامر⁽⁴⁶⁾.
- 8- اختلافات تمس الحالات السيكولوجية المعبر عنها: إن كل من يؤكد، ويفسر ويطلب بشيء أو يعد أو يهدد بعمل شيء، إلا ويعبر عن مقصدية لإنجاز شيء ما.
- 9- الاختلافات في حدة الاستثمار المعبر عنه أو الالتزام المعبر عنه في تقديم وجهة الإنجاز: مثال أقترح أن تقرأ رواية، ألح على قراءة الرواية، الجملتان لهما نفس وجهة الإنجاز إلا أن الجملة الأخيرة لها قوة مختلفة.
- 10- اختلاف مقياس أو وضعية المتكلم والمستمع في حدود حساسية قوة إنجاز الفعل.
- 11- يقول "فرانسوا أرمينيكو": إذا كان الجنرال يطلب من الجنود كنس الغرفة، فإن هذا بحسب كل الاحتمالات يعد أمراً.
- 12- أما إذا طلب الجندي من الجنرال كنس الغرفة، فإن الممكن أن يكون ذلك اقتراحاً أو طلب.
- 13- الاختلافات في الطرق التي يرتبط بها القول بمصالح المتكلم والمستمع.

(46) أرمينيكو، فرانسوا. ص 63، 66. المقاربة التداولية.

- 14- اختلافات في العلاقة بمجموع الخطاب والسياق الخطابي: حيث يوجد تعابير إنجازية، موجهة إلى ربط الجملة بجملة أخرى وبكل السياق المحيط مثالها: كلمة أجيب، استنتبط، اعترض فهي تربط جملة بجملة سابقة أو لاحقة.
- 15- اختلافات المضمون القضوي، التي تحدها طرق تشير إلى القوة الإنجازية، يقوم الاختلاف بين الحكي والعرض والتنبؤ حيث الحكي والعرض يتجه إلى الماضي والحاضر، والتنبؤ يتجه إلى المستقبل.
- 16- الاختلافات في أسلوب إنجاز الفعل الإنجازي⁽⁴⁷⁾ وقد جمع شوط سيرل الباحثان أن روبول وجاك موشلار في ما يلي:
- 17- القواعد التحضيرية ذات الصلة بمقام التواصل (يتحدث المتخاطبون اللغة نفسها) وقاعدة المحتوى القضوي (القائل ينجز عملا في المستقبل) والقواعد الأولية المتعلقة باعتقادات تمثل خلفية وقاعدة النزاهة والقاعدة الجوهرية (التزام القائل بمقصده واعتقاده) وأخيرا قواعد المقصد والمواضعة التي تحدد مقاصد المتكلم والكيفية التي ينفذ بها هذه المقاصد⁽⁴⁸⁾.

خامسا- نقد النظرية:

أثارت النظرية التداولية الجدل حول الفكرة التي جاءت بها التداولية بداية وهي الاهتمام بالمتكلم حيث اعتبرته قوة عليا يمتلك السلطة المطلقة على المخاطب حيث يأمره ويوجهه أما المخاطب أو المتلقي فهو في مرتبة دنيا، كما هو الحال في الأوامر الدينية والعسكرية، ويسمى هذا بالتواصل التوجيهي، وهناك من يساوي

(47) المصدر السابق. ص 63-66.

(48) روبول، أن، موشلار، جاك. (2003). ص34. التداولية اليوم، عالم جديد في التواصل. ترجمة: سيف الدين دغفوش، محمد الشيباني. ط1. بيروت: دار الطليعة.

بينهما (المتكلم والمخاطب أو المتلقي)، وهناك من يرى أن المقصدية أو القصد يتحكم فيه المتلقي، فيجعل المتكلم في قبضة يده، فيتصرف فيه كيفما يشاء، ثم يضطر المتكلم إلى تكثيف خطابه حسب رغبات المتلقي⁽⁴⁹⁾.

أرى أن هذا الاتجاه ينطبق على الخطاب الشعري فقط وليس على الخطاب اللغوي أو التداولية اللسانية لا يجوز فيها هذا الاتجاه أما التداولية الأدبية فهنا اتساع للمقصدية يقول د. محمد مفتاح: لا نرفض المقصدية جملة وتفصيلاً، ولكننا لا نجعلها هي العلة الأولى والأخيرة في إنتاج الخطاب وتفسيره، وإنما نعدّها طرفاً لا يكتمل معناه إلا بمقابله، وهو المجتمعية⁽⁵⁰⁾. كما جعل د. محمد مفتاح للخطاب الشعري اتجاهين أحدهما أفقي ويشمل الأصوات والمعجم والتركيب والمعنى والتداول، أما الاتجاه العمودي فيشمل المقصدية والمجتمعية⁽⁵¹⁾.

وممن جعلها ميكانيكية موجهة "أوستن" و "سيرل" و "جرايس" ويرى د. "جميل حمداوي" أن التداولية ليست مقصورة على المتكلم فقط بل تشمل المخاطب أيضاً فقد تتفق المقصديتان درجات من الاتفاق وقد تختلفان درجات من الاختلاف، ودلل بالنص الأدبي حيث يوظف المبدعون والشعراء كلمات وتعابير وأسماء وأعلام لها مقصدية مباشرة وغير مباشرة، قد تدرك بطريقة ظاهرة، أو تفهم بالتضمن والتلميح وهذه المقصدية واضحة في الشعر العربي المعاصر حيث يوظف الشاعر المعاصر اللغة في ضوء سيميائية قصدية حيث تتحول قصائد ه إلى علاقات ورموز وإشارات وأيقونات تحمل في طياتها دلالات مقصدية، ينبغي

(49) حمداوي، جميل. ص 25. التداوليات وتحليل الخطاب.

(50) مفتاح، محمد. (1992) ص 166. تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص. ط3. الدار البيضاء، بيروت: المركز الثقافي العربي.

(51) المرجع السابق. 169.

استكشافها من قبل المتلقي عبر آليات التفكيك والتشريح والتقويض والتأجيل والتأويل⁽⁵²⁾.

أما د. محمود عكاشة فيرى أن مصطلح البراجماتية أدق من مصطلح التداولية لأن البراجماتية تهتم بعملية التلقي لا بنية الخطاب وإعداده في النفس وقائله وقصده، فالمتلقي مرجع معرفة القصد وليس القائل⁽⁵³⁾.

وإذا كانت التداولية تجعل المتلقي مرجع معرفة القصد فهي تتلاقى هنا ونظرية التلقي، حيث إن نظرية التلقي تجعل المتلقي هو الذي يحدد الدلالة في النص الأدبي وقد تتعدد الدلالات بتعدد القراء الواقعيين. وأرى أن التداولية أيضا تهتم بالتلقي والآخر لأن انقطاع الآخر يوقف عملية التداول.

كما يرى د. محمود عكاشة أن التداولية اللسانية لا تمثل النسق الكامل الذي استخدمه علماء العربية المتقدمون في معالجة المعاني الخطابية في النص العربي في ضوء السياقين اللغوي والخارجي، فهي صدى مباشر لتقصير البنيوية في دراسة المعنى والسياق بيد أنها تأثرت بالاتجاهات الأدبية في تفسير النص في ضوء رؤية المتلقي دون المتكلم⁽⁵⁴⁾.

كما يرى أن تطبيق التداولية على التراث البلاغي سوف يؤدي إلى اتهام البلاغة العربية بالضيق والعجز، وأن مفسري النصوص حرفيون، يقول:
والخطورة العظمى في تطبيق المنهج على النص القرآني فلسوف تحمل بعض المعاني على غير وجهها ولسوف يقال إن المفسرين والفقهاء لم يتوصلوا إلى

(52) حمداوي، جميل. ص 27. التداوليات وتحليل الخطاب.

(53) د. عكاشة، محمود. ص 7. النظرية البراجماتية اللسانية، التداولية.

(54) السابق. ص 117.

مناهج صحيحة في معرفة المقاصد وأحكام التشريع، وأن آراءهم في المعنى واستنباط الحكم تحتاج مراجعة في بعض النصوص⁽⁵⁵⁾.

إن التداولية متعددة التيارات ومتطورة، ومن آراء أوستن وسيرل السابقة نجدهما لم يفترضا أن القارئ يحدد الدلالة، بل اهتما بقصد المتكلم وبالتواصل بين المتكلم والمتلقي ومراعاة السياق ومن هنا نجد التداولية تتطابق والبلاغة العربية- كما سيأتي- كما يمكن تناول النص التراثي من خلالها واستخدامها كمنهج وكمقاربة، وقد طبقها بعض الباحثين على النص التفسيري حيث إنه؛ توضيح لمقصد المتكلم في النص الأول وهو القرآن الكريم حتى يفهمه المتلقي، وهنا تتجلى الفكرة الرئيسية في التداولية وهي قوة الاتصال الفعال أو التواصل بين المتكلم والمتلقي، كما نرى أيضا أن كتب الشروح على النصوص مثل الدواوين: كشرح ديوان المتنبي وشرح المتنون، محاولة لتوصيل مقصد المتكلم للمتلقي، المقصد الصحيح بلا زيادة أو نقصان.

ومما وجه للتداولية من نقد:

- 1- أنها ما زالت في مرحلة النضج والتطوير والتنظير والتطبيق، وما زالت قابلة للزيادة والتبديل.
- 2- أنها ليس لها منهج واضح أو مجال بحثي محدد.
- 3- تأثر الدارسون بعلم المنطق وعلم الرياضيات، ومن ثم ليس لها منهج واضح في التحليل.
- 4- أنها تقتقد إلى القواعد العامة والمبادئ التي تعين أسسها، وما طرحه من مبادئ.

(55) السابق. ص 7 و8.

- 5- لا تمثل منهجا مستقلا، ويتنازعها البلاغة وعلم اللغة وهي عند من يعدها في علم اللغة أو اللسانيات أهملت بعض العناصر اللغوية الأساسية.
- 6- لم تهتم بمعنى السياق اللغوي المباشر للتركيب النحوي، وهو المعنى المستفاد من ترتيب الألفاظ في التركيب، وهو الجانب الذي عالج البلاغيون العرب إلى جانب المعنى السياقي⁽⁵⁶⁾.

الفصل الثاني

التداولية العربية وحازم القرطاجني

أولا- التداولية والبلاغة العربية:

جاء في لسان العرب: تداولنا الأمر: أخذناه بالدول، وقالوا دواليك، أي مداولة على الأمر ودالت الأيام أي دارت، والله يداولها بين الناس.

وتداولته الأيدي: أخذته هذه مرة وهذه مرة، وقال الفراء: تداولنا العمل والأمر بيننا بمعنى تعاورناه فعمل هذا مرة وهذا مرة.

وقال الحجاج: يوشك أن تدال الأرض منا كما أدلنا منها، أي تجعل لنا الكرة والدولة علينا، فتأكل لحومنا كما أكلنا ثمارها وتشرب دماءنا كما شربنا مياهها⁽⁵⁷⁾.

إن تعريف التداولية في المعاجم العربية يطابق معناها المعاصر كمصطلح تطابقا تاما.

ولما كان البيان هو الكشف والإيضاح من قبل المتكلم للمتلقي وكانت البلاغة هي بلوغ المراد أو بلوغ القصد، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال ولكل مقام مقال،

(56) السابق نفسه. ص 116-117.

(57) ابن منظور. ص 1456. لسان العرب. ج 15.

بمعنى أن يكون التلفظ يلائم الحال أو السياق ويلائم حال المتلقي كان ذلك من أهم قضايا التداولية.

ويعني ذلك أيضا أنها تهتم بمعادلة الاتصال الحديثة وهي المتكلم - الرسالة - المتلقي والسياق الملائم، بما يتطابق أيضا مع مبدأ الملاءمة في التداولية.

الناقد العربي القديم اهتم ببلوغ قصد المتكلم للسامع حتى قامت علوم وكتب على تحقيق ذلك مثل: علم التفسير الذي يقوم على تقديم معنى واضح لمقصد المتكلم، وكذلك كتب الشروح على الدواوين شروح شعر "المتنبي" مثلا وشروح المصادر القديمة، تعد تقديمها واضحا لمقصد المتكلم للمتلقي.

البلاغة العربية تهتم بمقصد المتكلم وتهتم بوضوح الرسالة للسامع مع مراعاة أحوال السامع ومقامه وردود أفعاله لمقصد المتكلم أو أثر الرسالة على السامع أو المخاطب أو المتلقي، كما سنرى مع الناقد العربي حازم القرطاجني "في كتابه "المنهاج". قال "السكاكي" في "مفتاح العلوم" في تعريف الإيجاز: هو "أداء المقصود من الكلام بأقل من متعارف الأوساط"⁽⁵⁸⁾.

البلاغة العربية، تهتم بمقصودية المتكلم ووضوح ذلك للمتلقي ووضع مصطلح متعارف الأوساط بمعنى الأعراف اللغوية التي تهتم بها التداولية اللغوية أو اللسانية كما سبق في البحث.

كما أن البلاغة العربية "ارتبطت في نشأتها بالنص لا الجملة فنشأت نشأة دينية ارتبطت بالنص القرآني، وبالتالي فالوصف اللغوي فيها لم يكن منصبا على الجملة مجردة من مقامات إنجازها، بقدر ما نظر إلى النص بعده خطابا متكاملا، وهو ما ينطبق على باقي علوم العربية نحو، أصولا، تفسيراً، كما أن قضية الإعجاز في حد ذاتها، التي تبحثها البلاغة العربية طرحت طرحا نصيا في

(58) السكاكي. ص. 277. مفتاح العلوم للسكاكي.

مؤلفات البلاغيين لأن الإعجاز يكمن في النص ذاته، البلاغة تبحث في إعجاز نص خالد، وتقوم بوصفه وتفسيره مما يعني أنها تبحث في خطاب متكامل متماسك، وتتجاوز بذلك حدود الجملة "(59) كما أن علماء أصول الفقه كانوا من أحسن المستثمرين لظاهرة الخبر والإنشاء في إطارها التداولي، معتمدين مقولات ومبادئ: سياق الحال، ووضع المتكلم وموقعه من العملية التواصلية وغرضه من الخطاب .. وطبقوها على نصوص القرآن والسنة بغرض دراسة المعاني الوظيفية لتلك النصوص، وهي المعاني التي تطرأ على القول وتتغير من مقام إلى آخر، وعلاقة تلك المعاني بقائلها، وعلاقة ذلك كله بظروف القول وملابسات الخطاب"(60).

أما علماء النحو فقد اعتنوا عناية كبيرة بالارتباط التداولي بين الأسلوب- خبرا كان أو إنشاء- وبين معناه الإبلاغي ووظيفته التواصلية، مع الاهتمام بالمعاني والأغراض الإبلاغية المتوخاة من الخطاب، وقد سلكوا منهاجا تداوليا في تحليل بعض الظواهر التركيبية: مثل التقديم والتأخير، والتعيين، والإثبات والنفي والتي لا تعدو أن تكون أغراضا وغايات تواصلية يسعى المتكلم إلى تحقيقها. وهي بلغة المعاصرين "أفعال كلامية" طالما أنه يراد بها تخصيص الخطاب، أو الحرص على تضمين الخطاب فائدة تواصلية معينة، أو تنبيه المخاطب، أو تأكيد الرسالة الإبلاغية له أو نداء أو إغراء أو تحذير أو توبيخ(61).

59) لهويميل، باديس. (2011) ص 170. التداولية والبلاغة العربية. مجلة المخبر بجامعة محمد خيضر. الجزائر.

60) صحراوي، مسعود. (2005). ص 224. التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية للظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي. ط1. بيروت : دار الطليعة.

61) المرجع السابق: ص 225.

ثانياً - الدال والمدول عند حازم القرطاجني:

أقدم قراءة لمصدر من المصادر النقدية العربية وهو "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" لأبي الحسن حازم القرطاجني من خلال هذه القراءة الحديثة يتبين لنا مقدار أهمية تراثنا العربي ووعية بقضايا البلاغة الدقيقة التي عرفت في العصر الحديث تحت مصطلحات عدة منها التداولية، وهي هنا التداولية العربية إن جاز ذلك، كيف تناولها "حازم القرطاجني" وقدم قضاياها خاصة التداولية الأدبية، وهذه القراءة تعد خير دليل على ما تقدم من أحكام.

في العصر الحديث يرجع الدارسون الفضل في نشأة الدراسات البنوية والسيمولوجية إلى العالم السويسري "دي سوسير" Ferdinand De Saussure (1857-1913م)، بسبب رأيه في الدال والمدلول واللغة والكلام حيث درس اللغة دراسة وصفية وصنفها كظاهرة اجتماعية لا تاريخية وقد أحدث ثورة في دراسة اللغة وكانت دراسته عن الدال والمدلول مهيمنة على رحاب النقد اللساني في القرن العشرين وكان الدال عنده هو الصوت أو اللفظ المكتوب، أما المدلول فهو الصورة الذهنية المتحصلة للفظ فمثلاً كلمة وردة هذا اللفظ هو الدال أما صورة الوردة من حيث شكلها ولونها وأغصانها هي المدلول.

ونرى أن النقد العربي تناول فكرة الدال والمدلول، فقد شرحها "حازم القرطاجني" شرحاً وافياً قبل "دي سوسير" فقال:

"لما كانت المعاني إنما تتحصل في الأذهان عن الأمور الموجودة في الأعيان، وكانت تلك المعاني إنما تتحصل في الذهن بأعلام من العبارة⁽⁶²⁾ وقال: إن المعاني هي الصور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان. فكل شيء له وجود خارج الذهن فإنه إذا أدرك حصلت له صورة في

(62) أبو الحسن القرطاجني، حازم. ص 10.

الذهن تطابق لما أدرك منه، فإذا عبر عن تلك الصورة الذهنية في أفهام السامعين وأذهانهم، فصار للمعنى وجود آخر من جهة دلالاته الألفاظ.

فإذا احتيج إلى وضع رسوم من الخط تدل على الألفاظ من لم يتهيأ له سمعها من المتلفظ بها صارت رسوم الخط تقيم في الأفهام هيأت الألفاظ فتقوم بها في الأذهان صور المعاني فيكون لها أيضا وجود من جهة دلالة الخط على الألفاظ الدالة عليها⁽⁶³⁾.

شرح الناقد العربي فكرة الدال اللفظي أو الخطي أو المرسوم والمعنى لهذا اللفظ المتحصل في الذهن وهي تلك الفكرة الجديدة التي بتطویرها وتطورها صارت أساسا في الدراسات الحديثة، وأحاول في هذا الموضوع فقط قراءة التراث قراءة معاصرة ليبرز قيمة تراثنا العربي، وإدراكه للقضايا الأساسية في التداولية.

ثالثا - التداولية عند حازم القرطاجني:

كان مفهوم التداولية مدركا لدى النقاد العرب القدماء والبلاغيين، ومن مظاهر هذا الإدراك حرص البلاغة العربية على الاهتمام "بالمتكلم" أو "المخاطب" أو "السامع" أو "المتلقي" كما جاء في كتب النقاد والبلاغيين العرب، حيث إن التداولية؛ هي نظرية تهتم بالفائدة العلمية وتهتم بمقاصد المتكلم والبحث في معاني الكلام كما تهتم بالمتكلم وهي تهتم بالمعاني العميقة أو معنى المعنى كما ورد عند النقاد العرب أو المعنى العميق، إنها تهتم بكيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم بشكل صحيح بلا تحريف، كما تهتم بدراسة معنى خطاب المتكلم وفهمه فهما صحيحا وحينما نتتبع التداولية العربية إن جازت التسمية عند "حازم القرطاجني" نجده يهتم بمقصد المتكلم وكيفية توصيل هذا المقصد للمتلقي ويدرس بعض المحاور السابقة التي تهتم بها التداولية فيقول:

(63) المصدر السابق. ص 18.

حينما يتكلم عن المعاني الثواني: "وحق الثواني أن تكون أشهر في معناها من الأول لتستوضح معاني الأول بمعانيها الممتلئة بها، أو تكون مساوية لها لتفيد تأكيدا للمعنى.... حتى لا يكون بمنزلة الحشو غير المفيد في اللفظ، ولمناقضة المقصد الشعري⁽⁶⁴⁾. إنه يحرص على توصيل المقصد الصحيح للمتلقي ثم يقول:

ومن المتصورات ما يليق بحقيقة مقاصد الشعر المألوفة وأغراضه المتداولة، وتصلح أن تورد فيها أوائل وثواني، ومنها ما لا يليق بها ولا يصلح فيها أن تورد أوائل ولكن تورد ثواني...فالتى يصلح أن تورد أوائل وثواني هي ما تعلق المتصور فيه بشيء معروف عند الجمهور من شأنهم أن يرتاحوا إليه أو يكثرثوا له، كان ذلك الشيء مدركا بالحس أو بغيره. والتي لا يصلح أن تورد أوائل وتورد ثواني هي ما تعلق التصور فيها بحقيقة شيء لا تعم معرفته جميع الجمهور⁽⁶⁵⁾.

مما سبق نجد حازم القرطاجني مدركا لمحاور التداولية المعاصرة السابقة في البحث فهو ذكر ضرورة الاهتمام بالقاعدة المعرفية للقارئ أو المرجعية عند المتلقي أو العرف اللغوي وهل سيصل إليه المقصد الصحيح للمتكلم أم لا، وخير مثال على اهتمامه بمرجعية المتلقي وضعه مصطلح المعاني الجمهورية وهي تتطابق مع الأعراف اللغوية في التداولية اللسانية.

إن المعاني منها ما يحتاج في فهمه إلى مقدمة، أو حفظ قصة، فالتى لا يحتاج في فهمها إلى مقدمة هي المعاني الجمهورية التي يشترك في فهمها الخاص والعام، وعليها مدار معظم المعاني الواقعة في الأغراض المألوفة في الشعر وهي متسحنة فيه⁽⁶⁶⁾.

(64) أبو الحسن القرطاجني، حازم.ص. 22.

(65) السابق. 22-23.

(66) أبو الحسن القرطاجني، حازم. ص 166.

وفي موضع آخر قال عن المعاني الجمهورية أيضا : إن من المعاني ما يوجد مرتسما في كل فكر، ومتصورا في كل خاطر، ومنها ما يكون ارتسامه في بعض الخواطر دون بعض ومنها ما لا ارتسام له في خاطر وإنما تهتدي إليه بعض الأفكار⁽⁶⁷⁾.

ومن خلال هذه المعاني المشتركة المتصورة في كل فكر وخاطر يحدث التواصل وتتحقق معادلة الاتصال بين المتكلم والمتلقي كما يتحقق التوصل إلى الفهم لمقصد المتكلم فهما صحيحا.

ثم تحدث عن المعاني المثبتة أو المرجحة أو المشككة "أنها تدل على مقاصد المتكلم واعتقاداته وأحكامه في التصورات والتصديقات المتعلقة بغرضه، معان ثوان ينوطها بمعاني كلامه لتبين فيها أحكاما وشروطا"⁽⁶⁸⁾.

وقد اهتم بسياق الكلام وأحوال المستمع والمتكلم وما يترتب على ذلك من تغيير المعنى حسب هذه الأحوال فقال: "فقد تبين أن المعاني صنفان: وصف أحوال الأشياء التي فيها القول، ووصف أحوال القائلين أو المقول على ألسنتهم، وأن هذه المعاني تلتزم معاني آخر تكون متعلقة بها وملتبسة بها، وهي كصفات مآخذ المعاني ومواقعها من الوجود... ومعطيات تحديدها وتقديراتها، ومعطيات الأحكام والاعتقادات فيها، ومعطيات كصفات المخاطبة"⁽⁶⁹⁾.

وهناك شروط وضعها "حازم القرطاجني" حتى يكون الكلام واضحا للمتلقي وحتى يصل مقصد المتكلم للسامع وهي تتلاقى وبعض شروط "سيرل لمعرفة مقصد المتكلم كما تتلاقى وقانون الخطاب التداولي: الملائمة.

(67) المصدر السابق: ص 170.

(68) المصدر السابق. ص 13.

(69) المصدر السابق. ص 13.

يقول "حازم القرطاجني: "والتهدي إلى العبارات الحسنة يكون بأن تكون للشاعر قوة يستولي فكره بها على جميع الجهات، وهي اختيار المواد اللفظية أولاً من جهة ما تحسن في ملافظ حروفها وانتظامها وصيغها ومقاديرها واجتتاب ما يقبح في ذلك، ومن ذلك حسن التأليف وتلاؤمه.

والتلاؤم يقع في الكلام على أنحاء منها أن تكون حروف الكلام بالنظر إلى ائتلاف بعض حروف الكلمة مع بعضها وائتلاف جملة كلمة مع جملة كلمة تلاصقها منتظمة في حروف مختاره متباعدة المخارج مرتبة الترتيب الذي يقع فيه خفة وتشاكل ما، ومنها ألا تتفاوت الكلم المؤتلفة في مقدار الاستعمال، ومنها أن تكون كل كلمة قوية الطلب لما يليها من الكلم أليق بها من كل ما يمكن أن يوضع موضعها⁽⁷⁰⁾، ومن ذلك التسهل في العبارات وترك التكلف. والتسهل يكون بأن تكون الكلم غير متوعرة الملاقط والنقلة من بعضها إلى بعض وأن يكون اللفظ طبقاً للمعنى تابعا له تجاربه العبارة من جميع أنحاءها على أوضح مناهج البيان والفصاحة⁽⁷¹⁾. وفي موضع آخر " فلما كان القول القياسي قد لزمه الطول والتكرار لم يكن لهم بد، فيما قصدوا به البلاغة من كلامهم، من أن يعدلوا مقداره ويميطوا تكراره.

فإن الكلام إذا خف واعتدل حسن موقعه من النفس، وإذا طال وثقل اشتدت كراهة النفس له، وليس يحمد في الكلام أن يكون من الخفة بحيث يوجد فيه طيش، ولا من القصر بحيث يوجد فيه انبتار، لكن المحمود من ذلك ما له حظ من الرصانة لا تبلغ به إلى الاستثقال، وقسط من الكمال لا يبلغ به إلى الإسأم أو الإضجار⁽⁷²⁾.

(70) أبو الحسن القرطاجني، حازم. ص 198.

(71) المصدر السابق. ص 199.

(72) المصدر السابق. ص 57.

إن شروط سيرل لا تخرج عن هذه الحدود التي وضعها حازم القرطاجني إلا قليلا فقد اهتم بالشروط أو الحدود التي يجب أن يلتزم بها المتكلم حتى يفهم المتلقي مقصده فهما صحيحا.

ونرى من مبادئ التداول الخطابي عند "حازم القرطاجني": مبدأ الملائمة يقول عن المعاني وملائمتها للمتلقي ولحال المتلقي: "ومن جهة مواقعها من النفوس، وكونها مما يستميل النفس أو ينفرها لكونها ملائمة لها أو منافرة أو بإيهام النفس ذلك بتخييل شعري أو إقناع خطابي وما يكون فيه معونة على تقوية ذلك⁽⁷³⁾.

إن مبدأ الملائمة في التداولية له أهميته حيث لا بد أن يتلاءم ما يقال مع ما يقصد وما يفهم من قبل المتلقي وأن يكون الكلام واضحا بلا إبهام أو غموض ومنظما ومناسبا لسياق الحال وهذا ما أوضحه "حازم القرطاجني" وشرحه شرحا وافيا من حيث تأثير الكلمة على المتلقي وملائمتها للمعنى والسياق.

وقد تحدث عن الحجاج بالمعنى الحديث في أكثر من موضع وأطلق عليه مصطلح "الإقناع الخطابي" و"الاحتجاج".

وفيما يلي يشرح علاقة الخطابة بالحجاج وكذلك الشعر بالحجاج حيث إن؛ الخطابة الأساس فيها الحجاج وتستخدم القليل من الخيال والصور الشعرية أما الشعر فالأصل فيه الخيال والصور ويستخدم القليل من الحجاج، فقال:

"كما أن في الشعر من يجعل أكثر معانيه وألفاظه مخيلة ولا يعرج على الإقناع الخطابي إلا في قليل من المواضع، وفيهم من يقصد الإقناع في كثير من معانيه لأن صناعة الشعر تستعمل يسيرا من الأقوال الخطابية كما أن الخطابة تستعمل يسيرا من الأقوال الشعرية لتعتضد المحاكاة في هذه بالإقناع

(73) المصدر السابق. ص 17.

والإمتاع في تلك المحاكاة، وكان أبو الطيب يعتمد هذا كثيرا ويحسن وضع البيت الإقناعي من الأبيات المخيلة لأنه كان يصدر الفصول بالأبيات المخيلة ثم يختمها ببيت إقناعي يعضد به ما قدم من التخييل ويجم النفوس لاستقبال الأبيات المخيلة". وقال في موضع آخر: "لما كان كل كلام يحتمل الصدق والكذب إما أن يرد على جهة الإخبار والاقتصاص وإما أن يرد على جهة الاحتجاج والاستدلال، وكان اعتماد الصناعة الخطابية في أقاويلها على تقوية الظن لا على إيقاع اليقين اللهم إلا أن يعدل الخطيب بأقويله على الإقناع إلى التصديق"⁽⁷⁴⁾.

أما عن فكرة الإقناع بالكذب أو إقناع الآخرين بالكذب وفي ذلك تأثير على الآخر حتى يعتقد في الوهمي من قوة التعبير وبيان الحجة يقول:

"والتموهيات تكون في ما يرجع إلى الأقوال. والاستدراجات تكون بتهيؤ المتكلم بهيئة من يقبل قوله، أو باستمالة المخاطب واستلطافه له بتزكياته وتقريره، أو بإطبائه إياه لنفسه وإحراجه على خصمه حتى يصير بذلك كلامه مقبولا عند الحكم، وكلام خصمه غير مقبول، والتمويهات تكون بطي محل الكذب من القياس عن السامع، أو باغتراره إياه ببناء القياس على مقدمات توهم أنها صادقة لاشتباهاها بما يكون صدقا، أو بترتيبه على وضع يوهم أنه صحيح لاشتباهاه بالصحيح، أو بوجود الأمرين معا في القياس، أعني أن يقع فيه الخلل من جهتي المادة والترتيب معا، أو بإلهاء السامع عن تفقد موضع الكذب وإن كان إلى حيز الوضوح أقرب منه إلى حيز الخفاء بضروب من الإبداعات والتعجيبات تشغل

(74) المصدر السابق. ص. 55.

النفس عن ملاحظة محل الكذب والخلل الواقع في القياس من جهة مادة أو من جهة ترتيب أو من جهة المادة والترتيب معا⁽⁷⁵⁾.

وعن فكرة الاهتمام بالسامع أو المتلقي وأثر الكلام عليه يقول حازم القرطاجني إنه يقنع الآخر ويمتعه ويؤثر فيه وهذا من أهم قضايا التداولية كما تتماس مع نظرة التلقي أيضا.

في حديثه عن المحاكاة أو التشبيه: "ولست المحاكاة في كل موضع تبلغ الغاية القصوى في هز النفوس وتحريكها بل يؤثر فيها بحسب ما تكون عليه درجة الإبداع فيها، وبحسب ما تكون عليه الهيئة النطقية المقترنة بها، وبقدر ما تجد النفوس مستعدة لقبول المحاكاة والتأثر لها.

فتحرك النفوس للأقوال المخيلة إنما يكون بحسب الاستعداد وبحسب ما تكون عليه المحاكاة في نفسها وما تدعم به المحاكاة وتعضد مما يزيد به المعنى تمويها والكلام حسن الديباجة من أمور ترجع إلى لفظ أو معنى أو نظم أو أسلوب⁽⁷⁶⁾.

وقال في حديثه عن المحاكاة وأحوال تأثر السامع ولذته أو فهمه أو نفوره يقول: كما أن الصورة إذا كانت أصباغها رديئة وأوضاعها متنافرة....، وإن كان تخطيطها صحيحا فكانت الألفاظ الرديئة والتأليف المتنافر فإننا نجد السمع يتأذى بمرور تلك الألفاظ الرديئة القبيحة التأليف عليها، يشغل النفس تأذي السمع عن التأثر لمقتضى المحاكاة والتخييل فلذلك كانت الحاجة في هذه الصناعة إلى اختيار اللفظ وإحكام التأليف كبيرة جدا⁽⁷⁷⁾.

(75) أبو الحسن القرطاجني، حازم. ص. 55-57

(76) المصدر السابق ص. 106.

(77) المصدر السابق. ص. 113-114

وقال: "ولا يمكن أن يتألف كلام بديع عال في الفصاحة إلا منها.... والدخيل لا يألف منه كلام عال في البلاغة أصلاً إذ من شروط البلاغة والفصاحة حسن الموقع في نفوس الجمهور، وذلك غير موجود في هذا الصنف من المعاني"⁽⁷⁸⁾.
ويذكر ألفاظ مثل: إنهاض النفوس، تأثر النفوس، تحريك النفس، تستطبيها النفوس، لكون النفس تنبسط ويتجدد نشاطها وغيرها من التركيز على نفس المعنى من الاهتمام بالمتلقي وأحواله⁽⁷⁹⁾.

وهذا الاهتمام بالأثر وقوته مع المتلقي يتلاقى مع القوة الإنجازية للفعل عند "سيرل" وهي تعني القوة التي يقصدها إنما تتركز فيما يحدث لدى المتلقي من تأثير قد يكون تأثيراً إيجابياً أو سلبياً، إقناعاً أو تثبيطاً وغير ذلك.

ومما سبق نستخلص ما يلي:

أن النقد العربي القديم ثري بما يكفي لمجاراة التيارات النقدية الحديثة وله مصطلحاته المرادفة أو المطابقة للمصطلحات الحديثة وعلينا نحن الباحثين إعادة قراءة التراث وتقديمه.

إن النقاد الغربيين المحدثين لهم فضل التنظير والتفصيل لنظريات بدأها ونظرها النقاد العرب وهذا لا ينتقص من حقهم ولا ادعي كل مفردات النظرية فالنظرية الواحدة تتطور وتتغير وتبدل ولكن الفكرة الأساسية بدأها نقادنا العرب في هذا الوقت من الزمن.

ألا يستحقوا الاعتزاز بهم والإشارة إلى إنتاجاتهم من باب التوثيق والأمانة العلمية، ونحن نعلم جيداً مدى رقي وتطور وحضارة الفكر العربي في هذه الحقبة الزمنية التي سبقت الصحوة الغربية حيث كانت المصدر العلمي الأساس لأوروبا

(78) المصدر السابق. ص 23

(79) تكررت هذه الفكرة في ص. 93، 95، 99، 102، 224، 262، 266، 267، 273.

حيث ترجمت آثارهم من العربية إلى الأسبانية ومن الأسبانية إلى الإنجليزية وكانت الملهم الأول لعلماء الغرب ونقاد الغرب الذين نقدهم ونقدر جهودهم الجديرة بالدراسة، وإشارتنا إلى الملهم الأول لا ينتقص حقهم.

الخاتمة

فيما يلي أورد بعض النتائج التي أسفر عنها البحث:

- إن الجوهر الدلالي والوظيفي للبرجماتية يتطابق والمعنى المعجمي لكلمة التداولية في المعاجم العربية وتحكم بذلك على دقة وصحة هذه الترجمة الاصطلاحية "التداولية".
- إنها تركز على قوة الاتصال الفعال بين المتكلم والقارئ.
- التداولية لا تدرس توصيل المعنى من المتكلم للمتلقي باللفظ فقط ولكن بما هو ليس لفظياً.
- تقوم مبادئ التداولية على فكرة قوة الاتصال الفعال بين المتخاطبين بكل ما هو مادي ومعنوي أو بالكيف والكم.
- إن اهتمام التداولية بالمتلقي وحرصها على درجة تواصله مع المؤلف تجعلها تتلاقى في جزء من محيط دائرتها ومحيط دائرة نظرية التلقي.
- إذا كان المتلقي هو مرجع معرفة القصد وليس القائل، فإن التداولية هنا تتلاقى من جديد مع نظرية التلقي، حيث إن في نظرية التلقي المتلقي هو الذي يحدد دلالة النص الأدبي، وقد تتعدد الدلالة بتعدد القراء الواقعيين.
- التداولية متعددة التيارات ومتطورة، ومن آراء "أوستن وسيرل"، نجد أنهما اهتمتا بقصد المتكلم وبقوة التواصل بين المتكلم والمتلقي، وفي هذا التيار تتطابق والبلاغة العربية.

- البلاغة العربية تهتم بمقصد المتكلم، وتهتم بوضوح الرسالة للسامع مع مقامه وردود أفعاله لمقصد المتكلم أو أثر الرسالة على المتلقي، وهي هنا تتلاقى بل تتطابق مع التداولية في جوهرها وأهم قضاياها، كما أن فكرة أفعال الكلام، والفعل الإنجازي تتلاقى وأغراض الخبر والإنشاء في علم المعاني.
- سبق حازم القرطاجني (608-1211 م) دي سوسير (1857-1913م) في التوصل لفكرة الدال والمدلول، حيث شرحها في منهاج البلغاء شرحا وافيا.
- من خلال قراءة المنهاج نجد أن حازم القرطاجني مدرك لمحاول منهج التداولية والحجاج.

المصادر والمراجع

- 1- أرمينكو. فرانسوا: المقاربة التداولية، ت د. سعيد علوش. مركز الإنماء القومي.
- 2- باديس. هويل: التداولية والبلاغة العربية، مجلة المخبر بجامعة محمد خيضر، الجزائر.
- 3- بلانشيه. فليب: التداولية من أوستن إلى هوفمان، ت. صابر الحباشة، ط1، دار الحوار، سوريا.
- 4- حمداوي. جميل: التداوليات وتحليل الخطاب، شبكة الألوكة.
- 5- روبرول، آن، موشلار، جاك. (2003). التداولية اليوم، عالم جديد في التواصل. ترجمة: سيف الدين دغفوش، محمد الشيباني. ط1. بيروت: دار الطليعة.
- 6- السكاكي. أبو يعقوب يوسف: مفتاح العلوم (1407هـ 1987 م) ط 2. دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان.
- 7- سلطان. مهدي صالح: 2012 م، في المصطلح ولغة العلم. بغداد.

- 8- صحراوي، مسعود. التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي. [ط: د]. بيروت: دار الطليعة.
- 9- عزام. محمد: 2010 م، المصطلح النقدي في التراث الأدبي. حلب، سوريا: دار الشرق العربي.
- 10- عكاشة. محمود. (2013 النظرية البراجماتية اللسانية التداولية، دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ. ط:1. القاهرة: مكتبة الآداب.
- 11- القرطاجني. أبو الحسن حازم: 2008م، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق. محمد الحبيب ابن الخواجة. تونس: الدار العربية للكتاب.
- 12- مفتاح، محمد. (1992). تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص. ط3. الدار البيضاء، بيروت: المركز الثقافي العربي.
- 13- ابن منظور: لسان العرب تحقيق. عبد الله الكبير و محمد أحمد حسب الله، هاشم الشاذلي. القاهرة، مصر: دار المعارف.
- 14- يول . جورج: 2010-1431 م، التداولية، ت. عتابي قصي، الدار العربية للعلوم، الرباط.